البرتغاليون

والبحر

الأحمر

للدكتور سعد زغلول عبد ربه
أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة طنطا

كانت أوربا تحصل على حاجتها من سلع الشرق الأقصى من الاسكندرية وموانيء البحرين الاسود والمتوسط ، وكان تجار البندقية يتولون في القرن الثالث عشر نقلها الى أوربا • وقد ترتب على الاشتغال بتلك التجارة ثراء تجار الاسكندرية والبندقية الذين كانوا يقومون بدور الوسيط لتوزيعها في أوربا • وقد أدى التنافس الذي حدث بين البنادقة والجنويين الى اتجاه الجنويين الى البرتغال ، ومحاولة استغلال معلوماتهم الجغرافية المتعلقة بفكرة الدوران حول القارة الافريقية ، والوصول الى الهند ، وبالتالي وضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى الواردة عن طريق الهند • وكان يحكم البرتغال في ذلك الوقت أسرة ايفيز Aviz ، وكانت من الأسر الملكية المتمسكة بالدين المسيحي ، وترى أن على عاتقها تقع مهمة نشر الدين المسيحي في الأراضي الاسلامية • ولذلك تبدأ البرتغال في تنفيذ هدفها الديني بالاستيلاء على مدينة سبتة في سنة ١٤١٥ ، وتبدي اهتمامها بمعلومات الجنويين الخاصة بامكان الدوران حول القارة الافريقية ، خاصة وانه كان هناك قصة منتشرة في أوربا عن وجود ملك مسيحي يحكم في وسط آسيا أو افريقية ، هو القس يوحنا أو برستر جون P. John

وقد حددت الاشاعات مكان وجود ذلك الملك المسيحي فيما بين الصين وغامبيا ، وانه يسيطر على منطقة كبيرة •

قرر البرتغاليون الوصول الى القس يوحنا للتحالف معه وضرب المسلمين من الخلف والأمام والانتقام للهزائم التي تعرض لها الصليبيون في الشام ، وكشف طريق بحري يصل الى الهند ولا يمر بالأراضي الاسلامية ، ووضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى ، وبذلك يحرمون المسلمين من المورد الاقتصادي الذي كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التي يحاربون بها المسيحيين • وقد رسم البرتغاليون خطتهم على أساس كشف ساحل أفريقية الغربي كشفا منظما ووضع أيديهم على ذهب وتجارة غرب افريقية لتمويل عملياتهم الكشفية ، وحرمان مسلمي شمال افريقية من ذلك المورد المالي الهام •

أعدت البرتغال الأساطيل اللازمة لعمليات الكشف ، واستعانت بخبرة

البحارة والجغرافيين الجنويين • وكانت عمليات الكشف في بدايتها بطيئة . ولكن البرتغاليين ثابروا على تلك العمليات حتى استطاع بارتولوميو دياز Bartholomew Diaz الوصول الى القمة الجنوبية لافريقية ، والدوران حولها في سنة ١٤٨٧ • وبذلك أصبح الأمل كبيرا في الوصول الى الهند عن طريق البحر ، وبدون المرور في الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون • وانتهزت البرتغال الفرصة وكونت حملة أخرى بقيادة فاسكو داجاما

V. da Gama تحركت من البرتغال في الثامن من اغسطس سنة ١٤٩٧ متجهة الى الساحل الغربي لافريقية لاستغلال كشف بارثولوميو دياز • واستطاع داجاما الدوران حول القمة الجنوبية لافريقية في أواخر ديسمبر سنة ١٤٩٧ ، ووصل الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق في أول مارس سنة ١٤٩٨ ، وحدوث تبادل تجاري بين البرتغاليين وسكان موزمبيق ، ثم التحرك بعد ذلك شمالا الى مالندي التي حصل منها على مرشد هندي اسمه كانا Cana ، أرشده عبر المحيط الهندي الى الساحل الغربي للهند ، وبذلك استطاع داجاما الوصول الى الساحل الهندي بالقرب من قاليقوط في ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ (١) •

تكبد البرتغاليون تضحيات بشرية ومالية كبيرة ، فقد توفي ثلثا أفراد الحملة في الطريق ، ولكن النتائج المالية كانت مذهلة جدا ، فقد تجاوز صافي الربح تكاليف الحملة ست مرات • وكان للنتيجة المالية والقصص التي سردها داجاما عما شاهده من عجائب الشرق أثرها على ملك البرتغال الذي صمم على استغلال كشف داجاما ، وارسال اسطول آخر الى الهند للاستيلاء على تجارة الشرق • ونفذت البرتغال عزمها وارسلت في مارس سنة ١٥٠٠ حملة جديدة بقيادة بدرو الفاريز P. A. Cabral مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق عن طريق المفاوضات او باستخدام القوة المسلحة ، واجبار المسلمين في تلك المنطقة على اعتناق الدين المسيحي ، والاستيلاء على سفن المسلمين وسفن كوشين وكانانور التي يصادفونها في طريقهم باستثناء سفن مالندي الموالية للبرتغال (٢) •

كانت تجارة الشرق الأقصى مرتبطة بالعمل المقدس ، ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين والوثنيين ، كما كانت تدر ربحا كبيرا • ولما كانت سيطرة البرتغال على تجارة الشرق تتطلب القضاء على مقاومة المسلمين بالمنطقة ، وهذا العمل يتطلب ارسال اسطول برتغالي قوي مجهز بقوة

عسكرية مدربة تدريبا جيدا على القتال البحري فقد جهز البرتغاليون أسطولا من عشرين سفينة بقيادة فاسكو دا جاما تحرك من البرتغال في العاشر من فبراير سنة ١٥٠٢ متجها الى المحيط الهندي . وكان على دا جاما ابقاء خمس من سفن ذلك الاسطول بصفة دائمة في مياه المحيط الهندي لحماية المحطات التجارية البرتغالية في كوشين وكانانور ، وسد مدخل البحر الأحمر ، وابعاد العرب عن تجارة الهند (٣) .

وبتوالي استخدام البرتغاليين للطريق البحري الى الهند تبين للاتغاليين أن الضرورة تتطلب تجول بعض سفن الاسطول البرتغالي أمام مدخل البحر الأحمر ، وتدمير السفن العربية التي تحاول الخروج منه ، وكذلك السفن العربية التي تتجول في المحيط الهندي . وقد كان للوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي أثرا ضاغطا على التجار العرب في البحر العربي والموانيء الواقعة على ساحل الهند الغربي . وازداد ظهور ذلك الضغط بمضي الوقت ، وأصبح البرتغاليون من أخطر المنافسين والمزعجين في المنطقة خاصة وان هدفهم النهائي هو القضاء كلية على طريق التجارة السابقة ، ولذلك حاولوا جهدهم وبوضوح تام وقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الأحمر . وكانت تلك المحاولة من جانب البرتغاليين تتطلب وقفة صلبة من التجار العرب الذين سيطروا على تلك التجارة منذ فترة طويلة ، ولذلك فقد طلب التجار العرب المقيمون في قاليقوط وشيخ عدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية المساعدة من سلطان مصر ، وكانت مصر التي تأثرت ماليتها بسبب التدخل البرتغالي على استعداد للدخول في صراع مع البرتغاليين (٤) .

بدأ السلطان المصري في اتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له ، فارسل حملة بقيادة الأمير حسين الكردي في نوفمبر سنة ١٥٠٥ مهمتها الاولى تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الأحمر ، وتحصين سواحل ذلك البحر بعد أن أعلن البرتغاليون عن عزمهم مهاجمة المدن المقدسة في الحجاز وتخريبها . وما أن وصل الأمير حسين الى جدة حتى بدأ في بناء سور ضخم له أبراج عالية ، ثم توجه الى سواكن واستولى عليها ، وأقام بعض الاستحكامات بها . ومن سواكن اتجه الاسطول المصري الى بعض الموانيء اليمنية حيث بقى بعض الوقت بميناء عدن (٥) .

تحرك الاسطول المصري من مياه عدن ، واتجه الى الهند حيث اشتبك مع اسطول برتغالي . وفي ذلك الاشتباك انتصر الاسطول المصري على الاسطول

البرتغالي انتصارا جزئيا في موقعة ديو البحرية · كما استطاع بالاشتراك مع أسطول حاكم ديو هزيمة أسطول برتغالي مكون من ثمان سفن عند شول في سنة ١٥٠٨ (٦) ·

كان لانتصار الاسطول المصري على الأسطول البرتغالي أثره على البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر الشديد الذي سوف تتعرض له مصالحهم في المنطقة خاصة وأن وصول ذلك الاسطول الى مياه المحيط الهندي كان مفاجأة لهم ، بالاضافة الى انضمام سفن عدد من الولايات الهندية الى سفن ذلك الاسطول · ولذلك سارع فرانسشكو دالهيدا نائب الملك بالهند في الخروج على رأس اسطول اخر مكون من تسع عشرة سفينة لملاقاة الاسطول المصري والقضاء عليه · واشتبك الاسطول البرتغالي مع الاسطول المصري وحلفائه عند ديو في الثالث من فبراير سنة ١٥٠٩ · وفي ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المصريين وحلفائهم انتصارا ساحقا · ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الأمير حسين بالانسحاب بما بقى من سفنه الى جده ، بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين (٨) ·

بانتصار البرتغاليين على المصريين في ديو رسخت أقدامهم في المحيط الهندي ووضعوا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها · واتماما للفائدة عمل البرتغاليون على تشديد الحصار على الخليج الفارسي (العربي) والبحر الأحمر حتى لا تصل تجارة التوابل الى المصريين ، وراقبت سفنهم مدخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج من ذلك البحر · وقد أدت تلك المراقبة وذلك الحصار الى استيلاء البرتغاليين في سنة ١٥٠٩ على بعض السفن اليمنية (٩) · ولم تستطع السلطات اليمنية وقف الاعتداءات البرتغالية أو الرد عليها · واضطر السلطان اليمني الظافر الثاني الى الاستنجاد بالسلطان الغوري ومطالبته بالاسراع باتخاذ عمل مضاد يقضي على استفحال الخطر البرتغالي (١٠) · وقد أرسل السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ رده على سلطان اليمن مبينا له حقيقة الموقف في القاهرة ، والاستعدادات التي تقوم بها لمواجهة البرتغاليين (١١) · وقد طلب السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ من ملوك الهند مساعدته في القتال ضد البرتغاليين (١٢) وكما طلب من بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح · وكان من رأي بايزيد الثاني أن البرتغاليين سوف يحاولون الوصول الى مكة والمدينة وتدميرهما ، ولذلك وعد بارسال السلاح ومساعدة الدولة المملوكية (١٣) · ووفى السلطان بايزيد بما وعد ، وحمل السفن المصرية وعددها ثماني عشرة سفينة بالسلاح والأخشاب والمعونة العثمانية ·

ولكن هذه المعونة لم يكتب لها الوصول سالمة الى الاسكندرية بسبب تعرضها لهجوم سفن فرسان القديس يوحنا في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وحدوث معركة غير متكافئة بين الطرفين أغرقت فيها سفن الفرسان بعض السفن المصرية ، وأسرت البعض الآخر ، كما تاهت سفينتان في العاصفة . وبذلك فان السفن الست الباقية التي وصلت الى الاسكندرية لم يكن عليها شيء من المعونة العثمانية (١٤) .

ومن ناحية أخرى فقد عمد الأمير حسين الكردي الى تحصين ميناء جدة حتى تستطيع الصمود في وجه البرتغاليين ان هم حاولوا الذهاب اليها ومهاجمتها عن طريق بناء سور ضخم حولها (١٥) . وطلب من أمراء الهنود الذين استمروا على حلفهم مع مصر معونة مالية لبناء السور . وبرر ذلك الطلب بقوة البرتغاليين ، واستطاعتهم دخول البحر الأحمر ، والوصول الى جدة وتدمير الأماكن الاهلامية المقدسة في مكة والمدينة (١٦) . ولما كان أمراء الهنود يعتقدون أن البرتغاليين سوف يحاولون دخول البحر الأحمر وتدمير الأماكن الاسلامية فقد قدموا حمولة ثلاث سفن من سفن التوابل اسهاما منهم في تحصين جدة (١٧) . واستطاع الأمير حسين بتلك المعونة الانتهاء من بناء السور في سنة ١٥١١ وكان قد بدأ في بنائه في سنة ١٥٠٩ (١٨) .

فرض البرتغاليون الحصار حول مدينة عدن ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقوة تحصيناتها الطبيعية . وكان الهدف من هذا الحصار اسقاطها والاستيلاء عليها ، واستخدامها قاعدة عسكرية يستطيعون عن طريقها السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الاسطول المصري المناوىء ومنعه من الخروج الى المحيط الهندي ، ومهاجمة سفنهم وطردهم من الهند . وبذلك يقضون على أمل أمراء الهند في وصول الامدادات العسكرية من مصر اليهم ، وتفتر مقاومتهم للبرتغاليين ، وبذلك تستقر الأمور للبرتغاليين في الهند (١٩) .

قرر البوكيرك الاستيلاء على عدن فخرج من جوا في ٨ فبراير سنة ١٥١٣ بأسطول كبير بلغت عدة سفنه عشرين سفينة تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، ووصل الى عدن في ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ (٢٠) وكانت اخبار الحملة قد سبقت وصولها ، فاتخذ حاكم عدن العدة لملاقاة البرتغاليين . وعلى الرغم من انتفاء عنصر المفاجأة فقد استولى البرتغاليون على بعض السفن الراسية في ميناء عدن ، وقصفوا المدينة بنيران مدافعهم . وخشي حاكمها من تدميرها على يد البرتغاليين فأرسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد هدنة معهم (٢١) . وقد رفض البرتغاليون الاقتراح ، وأعادوا له هداياه ،

وهددوا بالاستيلاء على المدينة قهرا اذا لم يستجب حاكمها ويسلمها لهم سلما ، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالي (٢٢) .

رفض حاكم عدن الاستجابة لتهديد البرتغاليين ، فهاجموا المدينة ، واستطاع بعض أفرادهم تسلق الأسوار والنزول الى المدينة (١٣) . ولم يخف سكان المدينة من نزول البرتغاليين في مدينتهم ، وهاجموهم بكل ما وقع تحت أيديهم من حجارة مما شجع حاكمها على رفض التسليم ، ومهاجمة البرتغاليين الذين تسربوا الى داخل المدينة ، وأجبرهم على الهرب . واضطر البرتغاليون الى اطلاق نيران مدافعهم لتغطية انسحاب قواتهم من داخل المدينة (٢٤) ، وبذلك فشلت محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المدينة (٣٤) . فانسحبوا من مياهها بعد أن أشعلوا النار في السفن الراسية في الميناء (٢٥) .

انسحب البرتغاليون من مياه عدن واتجهوا الى باب المندب ومنه الى البحر الأحمر متجهين الى الشمال ، واستولوا على جزيرة قمران في أبريل سنة ١٥١٣ (٢٦) . وكما هي عادتهم في اخافة وارهاب السكان دمروا مبانيها وقتلوا من وجدوه عليها من السكان اليمنيين (٢٧) . واستقر البرتغاليون بالجزيرة حتى شهر يوليو سنة ١٥١٣ . ولم يحاول سلطان اليمن اتخاذ اي اجراء لطردهم من الجزيرة (٢٨) . واذا كان البرتغاليون قد وصلوا الى جزيرة قمران الا أنهم لم يستطيعوا الوصول الى ميناء جدة بسبب تعرض سفنهم لعاصفة شلت اسطولهم ، ومنعتهم من الوصول الى الأراضي المقدسة وتنفيذ هدفهم الرامي الى العبث بالمقدسات الاسلامية ، وتدمير قبر الرسول عليه السلام بالمدينة (٢٩) .

تحرك الاسطول البرتغالي في مياه البحر الأحمر بعد فشله في الاغارة على جدة والمدينة المنورة ، وأغارت بعض سفنه على ميناء زيلع ، وأطلقت نيران مدافعها على السفن الراسية فيه ، واشعلت فيها النيران (٣٠) .

ترتب على وصول الاسطول البرتغالي الى البحر الأحمر خوف أمير مكة من نزول البرتغاليين في ميناء جدة أثناء وجود الأمير حسين الكردي في مصر ، فتحرك بقواته الى جدة ، وبعث رسالة الى السلطان الغوري بين فيها خطورة الموقف في المنطقة ، وطلب الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين بها والاستيلاء عليها (٣١) . واستجاب السلطان الغوري لطلب

امير مكة فامر الأمير حسين الكردي بالاسراع بالتوجه الى جدة ، كما أرسل معه أحد الأمراء لاستقصاء أخبار البرتغاليين ، كما أمر بسرعة تجهيز السفن التي كان يتم انشاؤها في السويس ، وتزويد الحملة المنتظرة بحاجتها من الجنود والفنيين . ولم تتوقف جهود السلطان الغوري عند هذا الحد فقد توجه بنفسه الى ميناء السويس في مارس سنة ١٥١٤ للاشراف على انزال السفن الجديدة الى مياه البحر الأحمر . وتتابعت امدادات السلطان الغوري لحسين الكردي فارسل له قوة عسكرية أخرى في يوليو سنة ١٥١٤ ، كما أرسل أسطولا آخر في يونيو سنة ١٥١٥ بقيادة سلمان العثماني (٣١) . وقد انضم سلمان العثماني الى حسين الكردي ، واشترك معه في قيادة الاسطول المصري ضد البرتغاليين (٣٢) .

تاثرت التجارة اليمنية بسيطرة البرتغاليين على مياه المحيط الهندي ، ولذلك عملوا في أول الأمر على امداد الاسطول المصري المتجه الى الهند في سنة ١٥٠٧ بحاجته من الامدادات ، وعاملوه معاملة الحلفاء . ولكن لم تلبث المعاملة أن تغيرت بعد هزيمة الاسطول المصري في المياه الهندية ، وبدا البرتغاليون حملاتهم العسكرية في البحر الأحمر . فقد وقف حاكم عدن موقفا سلبيا عندما هاجم البرتغاليون ميناء عدن في سنة ١٥١٣ (٣٣) . وتبلور موقف اليمنيين ضد المصريين بوقوفهم موقف العداء الصريح ضد الاسطول المصري بقيادة حسين الكردي وسلمان العثماني . ولما كان حسين الكردي حريصا على سيادة واستقلال اليمن فقد بعث من يخبر سلطانها بامر الحملة المصرية ، والعمل على تزويدها بحاجتها من المؤن والأموال طبقا لما تعهد للسلطان الغوري عندما طلب منه المساعدة (٣٤) . وبين له أن هدف الحملة هو الابحار الى الهند لمقاتلة البرتغاليين .

لم يستجب سلطان اليمن لطلب حسين الكردي الذي تقدم من جيزان الى جزيرة قمران فوصلها في ديسمبر سنة ١٥١٥ . ومن هناك أرسل الهدايا الى زبيد ، وطلب تزويد الحملة بالمؤن والأموال لمساعدة الاسطول المصري على مواصلة الجهود ضد البرتغاليين (٣٥) . وكان السبب في عدم استجابة سلطان اليمن خوفه من أن يصبح ذلك التزاما سنويا عليه (٣٦) ، وطلب من والي زبيد عدم ارسال المؤن المعتادة الى جزيرة قمران والحجاز حتى لا يستولى عليها المصريون (٣٧) .

كان تعاون سلطان اليمن مع الحملة المصرية أمرا ضروريا لنجاحها .

ويتطلب نجاح الحملة السماح لسفنها باستخدام بعض الموانيء اليمنية ، وبذلك يستطيع الاسطول المصري تأمين البحر الأحمر وحماية سواحله ٠ وعلى الرغم من أن حسينا الكردي كان يرى احترام سيادة واستقلال اليمن الا أن تقاعس سلطانها عن تقديم المساعدة للاسطول المصري قد أجبره على اتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين قواته ٠ وكانت هذه الخطوات تتمثل في الاستيلاء على القواعد البحرية اليمنية اللازمة للاسطول المصري ٠ وعلى أساس ذلك التفكير حول حسين الكردي جهوده العسكرية الى اليمن للاستيلاء على الموانيء اللازمة لأسطوله حتى يمكنه التفرغ بعد ذلك للصراع مع البرتغاليين وهو مطمئن الى وجود خط دفاع خلفه يمكنه اللجوء اليه عند اللزوم (٣٨) ٠

تحرك حسين الكردي وسلمان العثماني الى زيلع في يوليو سنة ١٥١٦ بعد أن ترك بعض قواته في تهامة للاستيلاء على اليمن (٣٩) ٠ ولم يلبث أن تحرك من زيلع بعد اصلاح سفنه وتزويدها بحاجتها من المؤن متجها الى عدن (٤٠) ، فوصلها في ١٢ أغسطس سنة ١٥١٦ ٠ واستطاعت القوات المصرية بعد مقاومة عنيفة الاستيلاء على المدينة ولكن القوات اليمنية أجبرتها على الانسحاب ، ومغادرة عدن في ١٩ أغسطس من نفس العام (٤١) ٠ واضطر الاسطول المصري بعد ذلك الى الانسحاب الى جدة بسبب الخلاف الذي نشب بين حسين الكردي وسلمان العثماني (٤٢) ٠

فشلت خطة البوكيرك الخاصة بالاستيلاء على عدن في سنة ١٥١٣ (٤٣) ، الا أن هذا الفشل لم يقض على فكرة السيطرة البرتغالية على عدن على أساس أن السيطرة عليها سوف تؤدي الى السيطرة على البحر الأحمر ، وبالتالي قطع الصلة بين مصر والهند وتوجيه ضربة للمصالح المصرية التجارية في الهند ، وفي نفس الوقت تثبيت السيطرة البرتغالية على مياه المحيط الهندي وعلى التجارة الشرقية ٠ ولذلك حاول البرتغاليون الاتصال بمملكة الحبشة المسيحية والتعاون معها ضد مصر والحجاز ، بهدف تدمير المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة (٤٤) ٠

بدأ البرتغاليون في تنفيذ هدفهم فتحرك أسطول برتغالي بقيادة سوَّاريز من جوا بالهند في الثامن من فبراير سنة ١٥١٧ ٠ وكان يتكون من أربعين سفينة ، وهو يحمل على ظهره ألفين من المقاتلين ٠ وكانت مهمة ذلك

الاسطول مهاجمة الاسطول المصري في البحر الأحمر وتدميره والاتصال بمملكة الحبشة (٤٥) ٠

وصل الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن في الخامس من مارس سنة ١٥١٧ ، ولكنه لم يهاجم المدينة وعمل على اقرار الأمور سلميا مع حاكمها ، وحاول أن يجتذبه الى جانبه ضد المصريين ، فأعلن أن الهدف من وصوله هو الوقوف الى جانب العدنيين ضد المصريين الذين هاجموا بلاده وحاولوا الاستيلاء عليها (٤٦) ٠ وخشى حاكم عدن رفض المطالب البرتغالية ، وما قد يؤدي اليه ذلك الرفض من مهاجمة البرتغاليين لعدن ومحاولة تدميرها فأمدهم بحاجتهم من المؤن والمرشدين البحريين لقيادة سفنهم الى جدة (٤٧) ٠

تحرك سوّاريز من عدن في السابع عشر من مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل الى القرب من جدة ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب شدة الرياح ، كما فشل في تدميرها أو الاستيلاء عليها ٠ ويرجع هذا الفشل الى قوة التحصينات التي أقامها المصريون هناك (٤٨) ٠ وقامت سفن الاسطول المصري بقيادة سلمان بمطاردة سفن الأسطول البرتغالي وتمكنت من أسر احداها بالقرب من ميناء اللحية اليمني ، وعادت بها بمن عليها من البرتغاليين الى ميناء جدة (٤٩) ٠

أسرع البرتغاليون بالانسحاب من مياه جدة ، واتجهوا الى جزيرة قمران ببعض سفنهم بينما شتتت الرياح البعض الآخر وحولته الى احدى الجزر الواقعة أمام الشاطىء الافريقي بالقرب من ميناء سواكن ٠ ولم يستطع البرتغاليون الحصول على حاجتهم من المياه العذبة فاتجهوا الى جزيرة دهلك وهم في حالة اعياء شديد ، وموت عدد كبير منهم بسبب نفاد مخزونهم من المياه العذبة واضطرارهم لشرب المياه المالحة ، ومن هناك اتجهت الى مصوع حيث وقعت في كمين ترتب عليه قتل عدد آخر منهم (٥٠) ٠

هاجم البرتغاليون بقيادة سوّاريز جزيرة قمران ودمروا التحصينات التي سبق وانشأها حسين الكردي ، وأحرقوا النخيل الموجود بالجزيرة ثم غادرها في ١٢ يونيو سنة ١٥١٧ متجها الى زيلع فوصلها في يوليو ، وقتل عددا كبيرا من أهلها انتقاما منهم ، ثم اتجه الى عدن وهو في طريقه الى الهند (٥١) ٠ وتوقف سوّاريز خمسة أيام في مياه عدن ، ولكنه لم يهاجمها بسبب ما لحق بقواته من خسائر ، وانتشار المرض بين من بقي من رجاله ،

ولعدم تأكده من نتائج ذلك الهجوم · وبذلك تخلى سوّاريز عن فكرة مهاجمة عدن والاستيلاء عليها ، كما رفض قبول مفتاح المدينة الذي عرضه عليه حاكمها (٥٢) ·

هاجم بعض الكتاب البرتغاليين سوّاريز لعدم استيلائه على عدن ، واتهموه باضاعة الفرصة التي سنحت له في ذلك الوقت · ورأى ملك البرتغال أن الفشل الذي مني به البرتغاليون في البحر الأحمر يرجع الى سوّاريز فعزله من منصبه · وغادر سوّاريز الهند متجها الى البرتغال في ٢٠ ديسمبر سنة ١٥١٨ (٥٤) ·

لم ييأس البرتغاليون بسبب الفشل الذي تعرضت له حملة سوّاريز في البحر الأحمر ، وقرروا تنفيذ مخططهم ، فارسلوا حملة كبيرة بقيادة لوبو سكويرا نائب الملك في الهند الذي خلف سوّاريز · ووصلت الحملة الجديدة الى مدخل البحر الأحمر في أوائل سنة ١٥٢٠ · وكانت أغراض الحملة في هذه المرة تتكون من شقين : الأول منهما مهاجمة جدة والاستيلاء عليها ، والثاني انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية لانشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة ، والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامي في مياه البحر الأحمر · ولم يحاول سكويرا الرسو بميناء عدن بل توجه مباشرة الى ميناء جدة مستغلا في ذلك موسم الرياح ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب الرياح المعاكسة (٥٥) · كما وصلته أنباء تشير الى وجود قوات عسكرية اسلامية بها ، فاتجه الى ميناء مصوع حيث أنزل دي ليما المبعوث البرتغالي لملك الحبشة (٥٦) ·

أرسل البرتغاليون في أوائل سنة ١٥٢٤ حملة كبيرة الى مصوع بقيادة دي سلفيرا وكان الهدف من ارسالها استعادة المبعوث البرتغالي الى بلاط ملك الحبشة · وقد قدم حاكم عدن المؤن للحملة أثناء ذهابها الى مصوع ، وتبين دي سلفيرا ضعف عدن ، ونظرا لأهميتها الاستراتيجية فقد أجبر حاكمها عند عودته على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وأن تسمح للسفن البرتغالية باللجوء الى مينائها في أي وقت ، ولكن نائب الملك في الهند رفض اعتماد تلك المعاهدة على أساس أنها تضييع للجهود البرتغالية · ولم تلبث القوات البرتغالية أن ضربت بمدافعها عدن أثناء اتجاهها الى مصوع في سنة ١٥٢٥ ، ولكنها لم تحقق شيئا من النجاح · كما حاول دي سلفيرا في أثناء عودته من مصوع في

سنة ١٥٢٦ مهاجمة عدن ولكن الرياح أبعدت سفنه عنها · وعلى الرغم من الفشل المتكرر أمام عدن فقد استطاع دي سلفيرا في فبراير سنة ١٥٣٠ عقد معاهدة مع حاكم عدن اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن ، ودفع جزية سنوية للبرتغاليين · واعترف البرتغاليون بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي بشرط عدم ذهاب سفنهم الى جدة (٥٧) · ولضمان تنفيذ بنود المعاهدة ترك البرتغاليون احدى سفنهم الحربية وعليها أربعون برتغاليا في ميناء عدن · ولم يكتب لتلك المعاهدة الاستمرار الا مدة قصيرة بعد رحيل دى سلفيرا عن عدن ، اذ قبض حاكم عدن على البرتغاليين الموجودين في الميناء وسجنهم واستخدمهم في صنع الأسلحة ، وأعلن دخوله في طاعة العثمانيين (٥٨) ·

حاول البرتغاليون في سنة ١٥٢٣ استعادة مبعوثهم من بلاط ملك الحبشة فأرسلوا حملة هاجمت الشحر ونهبته أثناء ذهابها الى مصوع ، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها (٥٩) · ولم ييأس البرتغاليون من استعادة سفيرهم فأرسلوا الحملات السنوية الى البحر الأحمر حتى أمكنهم استعادته في أوائل سنة ١٥٢٦ (٦٠) · وكان المبعوث البرتغالي يحمل خطابين من ملك الحبشة ، كما صحبه سفير من قبل ملك الحبشة · وفي هذين الخطابين أعلن ملك الحبشة عن رغبته في قيام تعاون بينه وبين البرتغال ، ولكنه لم يعلن عن رغبته في الاشتراك مع البرتغاليين في اعلان الحرب على المسلمين ، وفي نفس الوقت أخذ يحرض ملك البرتغال على الاستمرار في محاربة المسلمين حتى يتم القضاء عليهم نهائيا ، والاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس · واذا كان ملك الحبشة لم يحدد في خطابيه كيفية التعاون مع البرتغاليين فقد طلب منهم أن يقدموا له المساعدات حتى يستطيع الوقوف في وجه القوى الاسلامية المحيطة به · كما طلب ابقاء البعثة الدينية البرتغالية الموجودة في الحبشة لنشر الدين المسيحي في جميع جزر البحر الأحمر الواقعة على الحدود الحبشية ، لأن جميع سكانها من المسلمين والوثنيين (٦١) ·

كان نجاح البرتغال في التحالف مع الحبشة معناه امكان تطويق العالم العربي من ناحية الجنوب ، وفي نفس الوقت يمثل تهديدا خطيرا ومباشرا للأماكن الاسلامية المقدسة في الأراضي الحجازية · ولكن ذلك التحالف كان يحمل منذ البداية عوامل فشله بسبب اختلاف وجهتي نظر المتحالفين ، واختلاف مذهبيهما الديني · فالأحباش يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي بينما يعتنق البرتغاليون الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي · ومن ناحية الأهداف كان الأحباش يرغبون في أن يساعدهم البرتغاليون على

تطوير بلادهم حتى يستطيعوا الوقوف أمام الامارات الحبشية المسلمة المجاورة لهم . كما كانوا يرون أن تتعاون جميع الدول المسيحية الاوربية مع البرتغال بارسال قواتها الى البحر الأحمر ، وتستولى كل دولة من هذه الدول على أحد المواقع الهامة الواقعة على البحر الأحمر ، فتحتل أسبانيا زيلع ، وتحتل فرنسا سواكن ، بينما تحتل البرتغال مصوع . وفي نفس الوقت تساعد القوات المتحالفة الحبشة في الزحف على البلاد الاسلامية والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية المهمة . وكان معنى هذا الاقتراح القضاء على احتكار البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح . وكان البرتغاليون يهدفون من وراء ذلك التحالف اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم ، واستغلال ثروات الحبشة ، وتحويل الأحباش من المذهب الاورثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي ، وما أن تبين الأحباش تلك الأهداف حتى عملوا على طرد البرتغاليين من ونجحوا في تحقيق ذلك في أوائل القرن السابع عشر (٦٢) .

كان هناك عامل آخر ظهر الى حيز الوجود وأثر على موقف الأحباش من البرتغاليين هو ظهور الأتراك العثمانيين في البلاد العربية ، فقد خشى ملك الحبشة أن يؤدي تحالفه مع البرتغاليين الى مهاجمة القوات العثمانية لبلاده ، أو التدخل في تعيين رئيس أساقفة الحبشة التي كانت كنيستها تتبع كنيسة الاسكندرية ، وكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين رئيس أساقفة الحبشة . كما خشي ملك الحبشة أن يؤدي نشاط العثمانيين في المنطقة الى اثارة القلاقل في الحبشة من جانب الامارات الحبشية المسلمة . ولهذه الأسباب فضل الأحباش عدم عقد اتفاقيات محددة مع البرتغاليين بل ان الأمر وصل بهم إلى درجة التبرء من مبعوثهم في بلاط ملك البرتغال (٦٣) .

وهكذا فعلى الرغم من محاولات البرتغاليين المتكررة الاستيلاء على مواقع استراتيجية على سواحل البحر الأحمر للقضاء على السيطرة الاسلامية على مياهه والوصول الى الأماكن المقدسة الاسلامية في الأراضي الحجازية لتدميرها والقضاء على الدين الاسلامي فانهم لم يستطيعوا الوصول الى هدفهم بسبب الجهود التي بذلها المصريون ، وخوف الأحباش من الأهداف البرتغالية ، ثم ظهور الأتراك العثمانيين كقوة اسلامية كبيرة يخشى خطرها في مياه البحر الأحمر .

د. سعد زغلول عبد ربه
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب ـ جامعة طنطا

الهوامش

1. Strands, J.; Portuguese Period in East Africa, pp. 13 - 30.
2. Strands, J.; ibid. pp. 39, 43.
3. Strands, J.; ibid. pp. 43 - 45.
4. Strands, J.; ibid. p. 56.

٥ ـ احمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج ، ص ١٣٧ .

6. Kammerer, A. ; La Mer Rouge, tome, p. 155. Barbossa, D. ; The E. African and. . . p. 61.

٧ ـ زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين صص ٤٠ ـ ٤١ .

Stephens. H.M. ; portugal, p. 197.

٨ ـ نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية .. صص ٣٠ ـ ٣١ ـ ٩١ .

Barbossa, D. : op. cit. p. 61, Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 157, 174.

9. Kammerer, A. : ibld. II, pp. 157, 230.

١٠ ـ قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٩ .

١١ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٢٠٩ .

Kammerer, A. : op cit., II, p. 232.

١٢ ـ ابن اياس : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٨٥ .

١٣ ـ ابن اياس : نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٩٦ .

١٤ ـ ابن اياس : نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٩٦ .

Heyd, W. : Histoire du Commerce. . . II, pp. 537 - 539, Depping, G. B. : Histoire du commerce. . . II, p. 270.

15. Darnes, M. The Book of Duarte Barosa, pp. 46 - 47.

16. Darnes, M : ibid., p. 47 Depping, G. B. : op. cit., II, p. 219.

17. Depping, G.B. : ibid., II, p. 219, Darnes, : op. cit., pp. 48 - 49.

18. Darnes, M : ibid., pp. 46 - 47.

19. Wilson, A.T. : The Parsian Gulf, p. 118.

20. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 178, Wilson, A.T. : op. cit., pp. 118 119.

٢١ ـ با مخرمة : تاريخ ثغرة عدن ، جـ١ صص ١٢ ـ ١٣ ، ١٦ ـ ١٧ .

٢٢ ـ با مخرمة : قلادة النحر ، جـ٣ ص ١١٩٤ .

23. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.
24. Marco, E. : yemen and the Western World, p. 1.
25. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

٢٦ ـ أحمد دراج (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
27. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 192 - 193.

٢٨ ـ با مخرمة : قلادة النحر ، جـ ٣ ص ١١٩٥ .
29. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 193, Serjent, R.J. : The Portuguese ... p. 169.

٣٠ ـ يحيى بن الحسين : غاية الأماني ... ص ٦٤٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 205.

٣١ ـ ابن اياس : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٣٠٨ ، ٣١٠ ـ ٣١١ ، ٣٦٢ ـ ٣٦٦ ، ٤٥٨ ـ ٤٦٥ ، ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .
32. Kammerer, A. : op. cit., II, 231 - 232.

٣٣ ـ انظر ص ٩ من هذا البحث .

٣٤ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, 231.

٣٥ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

٣٦ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II. p. 233.

٣٧ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .
38. Denison, R. : The Portuguese in India and ... (J. P. A. S.) Oct. 1921, p. 560.

٣٩ ـ جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر ... ص ٢٠٣ .
٤٠ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٧ .
٤١ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، صص ٢٣ ـ ٢٤ .
٤٢ ـ السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الاول ، ص ٨٧ .
٤٣ ـ انظر ص ٨ من هذا البحث .
44. Kammerer, A. : cit., II, p. 265, wilson, A.T. : op. cit., p. 120.
45. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 205 - 266.

٤٦ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٥٨ .
47. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 277.

48. Marco, E. : op. cit., p. 1, Kammerer, A. : op. cit., II, 267 - 269.

49. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 170.

50. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 269, 272.

51. Kammerer, A. : ibid., II, pp. 273 - 274.

52. Marco, E. : op. cit., p. 2, Kammerer, A. : op cit., II, p. 275.

53. Dames, M.L. : The Portuguese and ... (J.R.A.S.) Jan. 1921, pp. 12 - 13, Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 267, wilson, A, T. : op. cit., p. 123.

54. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 276.

55. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 171.

٥٦ ـ با مخرمة : قلادة النحر ••• جـ٣ ، صص ١٢٠٩ ـ ١٢١٠ .

57. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 283 - 288.

58. Serjeant, R,J. : op. cit., pp. 55 - 59, wilson, A.T. : op. cit., p. 121.

59. Serjeant, R.J. : op. cit., pp. 52 - 53.

60. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 285 - 286.

61. Alvarez, F. : Narrative of the Portugnese Embassy ... pp. 389 - 399.

62. Alvarez, F. : ibld. pp. 311 - 312.

63. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to A byssinia ... pp. xxviiixxix.

المراجع

أولا ـ مخطوطات :

١ ـ با مخرمة (ابو محمد عبد الله الطيب) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ٣ أجزاء .
٢ ـ جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر بتكميل النــــور السافر في أخبار القرن العاشر .

ثانيا ـ مراجع باللغة العربية :

١ ـ ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد الحنفي) : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة .
٢ ـ احمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ .
٣ ـ السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمــــاني الأول لليمن ، القاهرة ١٩٦٩ .

٤ ـ **با مخرمة (أبو عبد الله الطيب)** : تاريخ ثغر عدن ، جزءان ، ١٩٦٣

٥ ـ **زين الدين الملباري** : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، لشبونة ١٨٩٨ .

٦ ــ **قطب الدين النهروالي** : البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض ، ١٩٦٧ .

٧ ـ **نعيم زكي (دكتور)** : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٨ ـ **يحيى بن الحسين** : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

ثالثا ـ مراجع باللغتين الانجليزية والفرنسية :

1. Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssiniu during the years, 1520 - 1527, London, 1881.
2. Barbosa, D, : A Description of the Coast of E. Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth Century, London, 1866.
3. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541 - 1533, London, 1902.
4. Dernes, M. : The book of Duarte Barbosa, 1518,2 vols, London, 1921.
5. Depping, G. B. : Histoire du Commerce entre le Levant I; Europe, 2 vols, Paris, 1830.
6. Heyd, M. : Histoire du Commercedu Levant, 2 toms, Leipzig, 1925.
7. Kammerer, A. : La Mer Rouge ..., 2 tomes, Le Caire, 1929, 1935.
8. Marco, E. : Yemen and the Western World, London, 1968.
9. Serjeant, R.J. : The Poruguese off the south A frican coast, Oxford, 1963.
10. Stephens, H. M. : Portugal, London, 1891.
11. Strandes, J. : The Portuguese Period in East Africa, Nirobi, 1961.
12. Wilson, R. T. : The Persian Gulf, London, 1945.

رابعا ـ دوريات :

1. Journal of Royal Asiatic Society (J.R.A.S.) : Jan., Oct., 1921.